الإستنارة

لقد قيل عن القديس ديديموس أنه فقد عينيه عندما كان عمره أربع سنوات، ومع ذلك أصبح واحداً من أكثر الرجال تعلماً في عصره. لقد صلى بجدية في شبابه، كما أخبرنا روفينوس، ليس من أجل بصر عينيه الجسديتين، ولكن من أجل إنارة القلب. لقد اعترف للقديس أنطونيوس بأن فقدان بصره كان سبب حزن له. فأجابه القديس لا تحزن على فقدان ما كان مشتركاً بينك وبين النمل والذباب والبعوض، بل ابتهج لأنك تمتلك بصيرة روحية مثل بصيرة القديسين والرسل. لقد اعتاد القديس جيروم على التحدث عنه ليس على أنه "الأعمى" بل على أنه "الرائي". لقد درس القديس ديديموس بحماس، وكان يسهر سهر طويل ومتكرر، ليس للقراءة ولكن للاستماع، حتى يتمكن من خلال السمع أن يحصل على ما يحصل عليه الآخرون من خلال البصر. أن نكون مستنيرين هو أن تكون حواسنا الداخلية مدربة على التمييز بين ما هو جيد وما هو شرير. وكما قال القديس أنطونيوس إن أعظم فضيلة هي التمييز، والاستنارة والتمييز يرتبطان ارتباطاً وثيقاً ببعضهما البعض. يكون التمييز عند المبتدئين هو المعرفة الحقيقية للذات؛ ويكون عند أولئك الذين في منتصف الطريق إلى الكمال القدرة الروحية على التمييز بلا هوادة بين ما هو جيد حقاً وما هو في الطبيعة يتعارض مع الخير؛ ويكون بين الكاملين معرفة ناتجة عن إستنارة إلهية، والتي بمصباحها يمكن أن تضيء ما هو مظلم والآخرين. وبعبارة عامة، فإن التمييز هو فهم راسخ لإرادة الله في كل زمان وفي كل مكان وفي كل شيء. ولا يوجد إلا بين أولئك الذين هم أنقياء في القلب والجسد والكلام[٥]. حقاً، أعظم معرفة هي معرفة مشيئة الله، وأعظم شجاعة هي الخضوع لإرادة الله، وأعظم عمل هو تحقيق مشيئة الله[٦].

إليكم ما يقوله القديس أنطونيوس العظيم عن التمييز (الإستنارة): ولذا أتذكر أنه بينما كنت لا أزال صبياً، في منطقة طيبة، حيث عاش الطوباوي أنطونيوس، جاء إليه الشيوخ للاستفسار عن الكمال، وعلى الرغم من أن الإجتماع استمر من المساء حتى الصباح، إلا أن الجزء الأكبر من الليل قد تناول هذا السؤال. لأنه تمت بإسهاب مناقشة ما هي الفضيلة أو الالتزام الذي يمكن أن يحافظ على الراهب دائماً دون أن يصاب بأذى من فخلخ الشيطان وخداعاته، ويحمله إلى الأمام على طريق مؤكد وصحيح،

---

[٥] السلم إلى السماء – الدرجة ٢٦ عن التمييز – القديس يوحنا الدرجي
[٦] يسوع المصلوب – الباب الأول - القس منسى يوحنا

وبخطوة ثابتة إلى قمم الكمال. وعندما أعطى كل واحد رأيه حسب ميل عقله، جعله البعض يتكون من الغيرة في الصوم والسهر، لأن النفس التي اتضعت بواسطة تلك الممارسات، وهكذا حصلت على نقاء القلب والجسد، ستكون أكثر سهولة في الإتحاد مع الله، والآخرين في احتقار كل شيء، لأنه إذا كان العقل محروماً منها تماماً، فإنه سيأتي بحرية أكبر إلى الله، كما لو كان من الآن فصاعداً لا توجد فخاخ لتوريطه؛ واعتقد آخرون أن الانسحاب من العالم هو الشيء الضروري، أي العزلة وسرية حياة الناسك؛ العيش الذي يمكن للإنسان أن يتواصل فيه بسهولة أكبر مع الله، ويتعلق به بشكل خاص؛ ورأى آخرون أنه ينبغي ممارسة واجبات المحبة، أي واجبات اللطف، لأن الرب في الإنجيل وعد بشكل خاص بإعطاء الملكوت لهؤلاء الأشخاص عندما قال: "تعالوا إلي يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم منذ تأسيس العالم لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني...إلخ". وعندما أعلنوا بهذه الطريقة أنه من خلال فضائل مختلفة يمكن تأمين نهج أكثر يقيناً تجاه الله، وكان الجزء الأكبر من الليل قد قضى في هذه المناقشة، ثم أخيراً تكلم الطوباوي أنطونيوس وقال: كل هذه الأشياء التي ذكرتموها هي في الواقع ضرورية، ومفيدة لأولئك الذين يتعطشون إلى الله، ويرغبون في الاقتراب منه. لكن الحوادث التي لا تعد ولا تحصى وتجربة العديد من الناس لن تسمح لنا بجعل أهم العطايا تتكون منها. فعندما يكون الرجال أكثر صرامة في الصيام أو في السهر، وينسحبون بنبل إلى العزلة، ويهدفون إلى حرمان أنفسهم من جميع خيراتهم منعاً باتاً بحيث لا يسمحون لأنفسهم حتى بيوم واحد من الطعام أو فلس واحد يبقى لهم، وعندما يقومون بجميع واجبات اللطف بأقصى قدر من التفاني، ومع ذلك، فقد رأيناهم يُخدعون فجأة، حتى أنهم لم يتمكنوا من إنهاء العمل الذي دخلوا فيه بشكل مناسب، بل جلبوا حماسهم الممجد وأسلوب حياتهم الجدير بالثناء إلى نهاية رهيبة. ومن ثم، سنكون قادرين على أن ندرك بوضوح ما الذي يقود بشكل رئيسي إلى الله، إذا تتبعنا بعناية أكبر سبب سقوطهم وخداعهم. لأنه عندما كانت أعمال الفضائل المذكورة أعلاه وفيرة لديهم، كان التمييز ناقصاً، مما سمح لهم بعدم الاستمرار حتى النهاية. كما لا يمكن اكتشاف أي سبب آخر لسقوطهم إلا أنه نظراً لكونهم لم يتلقوا تعليماً كافية من آبائهم الروحيين، فإنهم لم يتمكنوا من الحصول على التمييز، الذي يفيض على كلا الجانبين، ويعلم الراهب دائماً السير على طول الطريق الملوكي، ولا يجعله يعاني من أن ينتفخ على يمين الفضيلة، أي من الإفراط في الحماس لدرجة تجاوز حدود الاعتدال الواجب في افتراض أحمق، ولا يسمح له بأن يُفتن بالتراخي وينحي جانباً إلى الرذائل من جهة اليسار، أي بحجة السيطرة على الجسد، لينمو التكاسل بروح الفتور المعاكسة. لأن هذا هو التمييز، الذي يطلق عليه في الإنجيل "العين"، "وسراج الجسد"، وفقا لقول المخلص: "سراج الجسد هو العين فمتى كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً، ومتى كانت شريرة فجسدك يكون مظلماً". لأنها كما تميز كل أفكار وأفعال البشر، فإنها ترى كل الأشياء التي يجب القيام بها. ولكن إذا كانت "شراً" في أي إنسان، أي غير محصنة بالحكم السليم والمعرفة، أو مخدوعة

ببعض الخطأ والافتراضات، فإنها ستجعل جسمنا كله "مليئا بالظلام"، أي أنها ستظلم كل رؤيتنا العقلية وأفعالنا، لأنها ستشارك في ظلام الرذائل وكآبة الاضطرابات. لأنه يقول: "فلو كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون". لأنه لا يمكن لأحد أن يشك في أنه عندما يسير تمييز قلوبنا في اتجاه خاطئ، ويغمره ليل الجهل، فإن أفكارنا وأفعالنا، التي تنتج عن التمييز والتقدير، لابد وأن تشترك في ظلام الخطايا الكبرى[٧].

التمييز الحقيقي، لا يتم تأمينه إلا من خلال التواضع الحقيقي. والدليل الأول على هذا التواضع يُعطى من خلال البقاء على كل شيء (ليس فقط ما تفعله ولكن أيضا ما تفكر فيه)، تحت تدقيق الشيوخ، حتى لا تثق على الإطلاق في حكمك الخاص ولكنك تخضع لقراراتهم في جميع النقاط، وتعترف بما يجب اعتباره جيداً أو سيئاً من قبل تقاليدهم. وهذه العادة لن تعلم الشاب السير في الطريق الصحيح من خلال الطريقة الحقيقية للتمييز فحسب، بل ستبقيه أيضاً دون أن يُصاب بأذى من جميع أعمال وخداعات العدو. لأن الإنسان الذي لا يعيش بحكمه الخاص بل بمثال الشيوخ لا يُمكن أن ينخدع، ولن يتمكن عدونا الماكر من إساءة استخدام جهل شخص لم يعتاد على الحياء الزائف لإخفاء كل الأفكار التي ترتفع في قلبه، بل إما أن يفحصها أو يبقي عليها، وفقاً للحكم الناضج للشيوخ. لأن الفكر الخاطئ يضعف في اللحظة التي يتم فيها اكتشافه: وحتى قبل إصدار حكم التمييز، فإن الثعبان البغيض يتم سحبه بقوة الاعتراف، إذا جاز التعبير ، من كهفه المظلم تحت الأرض، وبطريقة ما يكون قد ظهر وأُرسل بعيداً في عار. لأن الأفكار الشريرة سوف تؤثر فينا طالما أنها مخبأة في القلب.

لهذا السبب كان الرسول القديس بولس يصلي إلى أهل أفسس لكي يستنيروا وأن يحصلوا على هذا التمييز الروحي "لا أزال شاكراً لأجلكم، ذاكراً إياكم في صلواتي، كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح، أبو المجد، روح الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرة عيون أذهانكم، لتعلموا ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته" (أف ١: ١٦-٢٠)

إن البقاء في الظلام يشبه التمسك بأداة حادة وعدم تركها ولكن التمسك بها بشكل أكثر إحكاماً، ولكن أن تكون مستنيراً هو أن تتخلي عن ما هو شر بسهولة، فتفعل ما هو جيد وصحيح مع السلام الداخلي دون أن يكون لديك هذه الحرب من الإنسان العتيق في الداخل. لكي نكون مستنيرين، يجب أن تكون لدينا علاقة مع الله، معك يا الله نصل إليك بينما نرنم بنورك يا رب نعاين النور. إنه أن تكون حواسنا مدربة على التمييز بين الخير والشر، فالخطيئة تظلم العقل، وأية شركة للنور مع الظلمة. بالتالي، تمنحنا التوبة أيضاً الاستنارة.

---

[٧] كتابات يوحنا كاسيان – يوحنا كاسيان

هذا ما قاله الرسول: "جميعكم أبناء نور وأبناء نهار. لسنا من ليل ولا ظلمة" (١تس ٥: ٥). وكما هو الحال في تلك الحالة الأخرى من الخطأ، يخلع الإنسان العتيق الإنسان الكامل ويرتدي ثوب مملكة الظلام، عباءة التجديف، والكفر، والجرأة، والمجد الباطل، والكبرياء، والجشع، والشهوة، وجميع الزينة الأخرى المماثلة التي لمملكة الظلام، الخشنة، النجسة، والملوثة. وعلى العكس من ذلك، كل الذين خلعوا الإنسان العتيق والأرضي والذين خلع منهم يسوع ثياب ملكوت الظلمة قد لبسوا الإنسان الجديد والسماوي، يسوع المسيح، حتى تنضم العيون مرة أخرى إلى عيون جديدة، والآذان إلى آذان، وجها لوجه، لتكون نقية تماماً وتحمل الصورة السماوية. وقد ألبسهم الرب ثياب ملكوت النور الذي لا يوصف، وثوب الإيمان والرجاء والمحبة والفرح والسلام والخير والدفء البشري، وكل الثياب الإلهية الحية الأخرى التي للنور والحياة والهدوء الذي لا يوصف. والنتيجة هي أنه كما أن الله هو المحبة والفرح والسلام واللطف والخير، هكذا يمكن للإنسان الجديد أن يصبح بالنعمة. وكما أن ملكوت الظلمة والخطية مخبئين في النفس حتى يوم القيامة الذي سيُغطى فيه جسد الخطاة بالظلمة المخبأة الآن في النفس، كذلك ملكوت النور والصورة السماوية، يسوع المسيح، ينير الآن الروح باطنياً وله سلطان في نفوس القديسين. في الواقع، المسيح مخفي عن أعين البشر. إنه يُرى فقط بعيون النفس حقاً، حتى يوم القيامة، عندما يملك حتى الجسد نفسه مع النفس، التي عندئذ، بعد أن بلغت ملكوت المسيح، تستريح وتستنير بالحياة الإلهية. المجد لرأفته ورحمته لأنه يظهر الشفقة على عبيده وينيرهم ويحررهم من مملكة الظلام. وهو يمنحهم النور ومملكته. له المجد والقوة إلى أبد الآبدين. آمين[٨]

[٨] العظات الروحية الخمسون للقديس مكاريوس – العظة الثانية